مجلة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
المجلد 16 العدد 2 (2023): 30– 45 ISSN : 1112- 7163 E-ISSN: 2588-1892

الأصول المنهجية والمعرفية لقراءة التراث اللغوي عند عبد الرحمان الحاج صالح

THE Methodoligical Cognitive Principles Of Reading The Arabic Heritage Of Abdul Rahman Alhadj Saleh

رقية بن سعد [1]، خيرة غربي [2]

1- جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)، مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب كلية الآداب واللغات
r.bensaad@lagh-univ.dz

2- جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)، كلية الآداب واللغات، مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب
dr.ghribikheira@gmail.com

تاريخ الاستلام: 21-02-2023 تاريخ القبول: 04-12-2023 تاريخ النشر: 31-12-2023

ملخص:

يتضمن هذا المقال بيان الأصول المنهجية والمعرفية لقراءة التراث اللّغوي عند عبد الرحمان الحاج صالح، التي وظّفها في قراءة لسانيات التراث توظيفا أبعده عن التقليد ودفع به نحو التجديد والإبداع متوخيا بذلك الحفاظ على أصالة التراث اللّغوي العربي، ومن النتائج المتوصل إليها البحث في الأسس العلمية والتاريخية للمفاهيم والتصورات واجب أخلاقي وعلمي، وتقوم المقابلة الدّلالية على إجراء المقايسة وهي أداة إجرائية في تحليل النصوص، للوقوف على مقاصد النحاة وأغراضهم في الموروث اللّغوي العربي.

كلمات دالة: الأصول المنهجية والمعرفية، لسانيات التراث،،الأصالة. المقايسة.

Abstract:

This article includes a statement of the methodological and cognitive principles of reading the linguistic heritage of Abd al-Rahman al-Haj Saleh, which he employed in reading the linguistics of heritage in a way that kept him away from imitation and pushed him towards renewal and creativity, with the aim of preserving the originality of the Arabic linguistic heritage. Among the results reached: Research in the scientific and historical foundations about concepts and perceptions has a moral and scientific duty, and the semantic

المؤلف المرسل: رقية بن سعد: r.bensaad@lagh-univ.dz

interview is based on making an assay, which is a procedural tool in analyzing texts, to determine the intentions and purposes of grammarians in the Arabic linguistic heritage.

Keywords: The Arabic linguistic heritage**,** heritage linguistics**,** originality**,** assay

1– مقدمة:

كيف نقرأ التراث؟ ترديد هذا السؤال يكفي ليشعر الباحث بمدى ثقله المعرفي فهو يضعنا أمام إشكالية كبرى، أرقت عقول الباحثين في القديم والحديث، وتنافست في حلّها الأقلام والعقول وتنوعت بذلك المناهج والأدوات لقراءة هذا التراث، والسؤال عن الكيف يقودنا مباشرة للسؤال عن المنهج، فالتراث العربي عامة والتراث اللّغوي خاصة يشكّل مادة دسمة تفتح شهية الباحث وتغريه لدراسته، لكننا نتساءل أي منهج هذا الذي يلائم دراسة التراث العربي؟

ومن الذين اهتموا بدراسة التراث العربي وعملوا على إخراج جواهره المكنونة من معارف وتصورات ومفاهيم: عبد الرحمن الحاج صالح الذي كتب عن طريقته في تحليل النص التراثي العربي، وكيف يصل الباحث النزيه إلى مقاصد النحاة وأغراضهم، دون أن يحرف أو يشوه ما قصدوه، وعليه كانت التساؤلات الآتية:

- **ما هي الأصول والمبادئ الواجب توفّرها في الباحث العلمي؟**
- **وما هي آليات قراءة التّراث العربي لدى عبد الرحمن الحاج صالح؟**

2 – لسانيات التراث:

شهد التراث اللّغوي العربي مع ظهور اللّسانيات الغربية اهتماما بليغا تمثل قي دراسة وبحث حثيثين، غير أنّ هذه الدراسات والبحوث قد اختلفت فيما بينها باختلاف المرجعيات والمقاصد من دراسة هذا التراث اللّغوي، فمنهم من رأى إعادة القراءة في بعضه أو أغلبه، لأنّه تراث لا يرقى لما قدمته اللّسانيات الغربية من مفاهيم علمية ومناهج لسانية، وبين من وظف بعضه ودعا إلى تجديد بعضه الآخر مثل تمام حسان، وبين من سعى إلى إبراز الوجه المشرق والمنير للتراث اللّغوي العربي وإظهار عبقرية النحاة الأوائل وتطوير النحو العربي الأصيل وهو من مؤسسي الدّرس اللّساني العربي الحديث عبد الرحمن الحاج صالح.

لقد ذكر الباحث مصطفى الغلفان معايير الكتابة اللسانية في لسانيات التراث(الغلفان،2007،الصفحة 63) وهي:

– **الموضوع**: تشتغل لسانيات التراث على موضوع التراث العربي القديم بالدراسة المختلفة لكل جوانبه وزواياه .

– **المنهج**: المنهج المتبع في لسانيات التراث هو منهج إعادة القراءة للتراث اللغوي العربي.

– **الغايــة**: ومن غايات لسانيات التراث:

– إعادة قراءة التراث العربي قراءة واعية فاعلة وإعادة تأويلها وفق ما وصل إليها البحث اللساني الحديث.

– التوفيق بين نتائج الفكر اللغوي القديم والنظريات اللسانية قصد إظهار التراث العربي بثوب حداثي لكن بروح الأصالة والتميز.

وقد عرف حافظ إسماعيلي علوي لسانيات التراث قائلا:"**يتخذ هذا الصنف من الكتابة اللّسانية التّراث اللّغوي العربي القديم في شموليته موضوعا لدراساته المتنوعة، أما المنهج الذي يصدر عنه أصحاب هذه الكتابة فهو ما يعرف عادة بمنهج القراءة أو إعادة القراءة، ومن غايات لسانيات التّراث وأهدافها قراءة التصورات اللّغوية وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللّساني الحديث والتوفيق بين نتائج الفكر اللّغوي القديم والنّظريات اللّسانية الحديثة، وبالتالي إخراجها في حلّة جديدة تبين قيمتها التاريخية والحضارية**" (علوي، 2009 صفحة 131).

3- الأصول والمبادئ المنهجية الواجب اتّباعها للباحث النّزيه:

ينقد عبد الرحمن الحاج صالح بعض الباحثين العرب في طريقة تعاملهم مع التراث العربي، فقد انتقد منهجهم في قراءة التراث والبحث فيه، وذكر هذه الهنات والسقطات التي من شأنها أن تعرقل مسيرة البحث العلمي وتعقده وتشوه مقاصد النصوص التراثية، ونذكر هذه السقطات التي ذكرها الباحث ونحاول موازاتها مع أخلاقيات البحث العلمي.

3–1– السقطات المنهجية للباحث في قراءة التراث العربي:

3–1–1– التبني المسبق لكل وافد معرفي غربي دون قراءة ناقدة:

وفي هذا يقول عبد الرحمن الحاج صالح"**التبني بدون نظر سابق لما جاء من الغرب من الأقوال والمذاهب اللّغوية بدعوى أنّ هذه الأقوال آخر ما وصل إليه العلم وأنّ الباحثين العرب لم يبلغوا بعد– لقلّتهم وقرب عهدهم بالبحث–مستوى الاجتهاد...**" (صالح، 2007 صفحة 12).

وبالتالي فإنّ بعض الباحثين العرب يرون في المعرفة الغربية حقائق ثابتة لا يمكن نقاشها ولا يأتيها الخطأ ولا يعتريها الشك، خصوصا تلك المفاهيم والتصورات الغربية التي يسعى الباحث العربي إلى ترويجها كما يروج لها صاحبها الغربي كمفهوم المقطع، المصوت القصير، المصوت الطويل هذه مفاهيم انبهر بها العرب على أنّها ابتكارات معرفية غربية حديثة، لكن الباحث النزيه والمتمرس الحق يعرف بوجودها السابق في التراث اليوناني، وإضافة على ذلك قد نفت تكنولوجيا اللّغة وجود المقطع على مدرج الكلام أي في تسلسله إلّا في حالة انعزال المقاطع عن بعضها البعض، أي في حالة الإفراد، ويعود هذا السقوط المنهجي والمعرفي للباحث إلى عدم تمكّنه من تكنولوجيا اللّغة من جهة، ومن جهة أخرى عدم توظيفها أيضا كأداة في البحث العلمي حيث تخضع المسائل النظرية لمحك التجربة والاختبار حتى تسهل عملية الفصل أو التثبيت المعرفي للمفاهيم والتصورات، وهذه أزمة حقيقية يعيشها البحث اللّساني العربي اليوم وتعتبر أحد عوائق البحث العلمي (صالح، 2007 الصفحات 12–13).

3–1–2– التعصب لمدرسة غربية أو مذهب لساني ما:

إنّ تعصب الباحث لمدرسة غربية معينة، أو تقديمه الولاء الأعمى لمذهب لساني دون غيره، من شأنه أن يسقط عقل الباحث فريسة تحت هذا التعصب الذي يجعله يسلم بكل ما جاء به من تصورات وأفكار وأطروحات معرفية دون تردد، وإن كانت ساذجة سطحية وهذا التوجه غير الأخلاقي ولا السليم يغيب بصيرة الباحث،"**إلّا أن البعض تعلّق بهذه الأقوال تعلّق الدّاعي بدعوته** (صالح، 2007 صفحة 13). وبالتالي تطفو الأنا الساذجة في التعامل الفكري مع النصوص. وعليه فإنّ الموضوعية مطلوبة وشرط أساسي في البحث العلمي، وهي أحد الموجهات الدّاعمة للأنا الباحثة حتى توازن بين الرغبة المعرفية في الوصول إلى الحقيقة، وبين وجود الخلفية العلمية التي تبقى في حياد معرفي دون تدخل ولا فرض آراء وأفكار من شأنها تشويش النص

وتحريفه، أي على الباحث أن يتحرر من الهوى المعرفي الذي يبقيه أسيرا لتعصبه وميولاته الفكرية والفلسفية أحيانا (صالح، 2007 صفحة 13).

3–1–3– تبعات الاتّصال المباشر بالمعرفة اللّسانية الغربية:

إنّ الاتّصال المباشر بالمعرفة اللّسانية الغربية وصفها عبد الرحمن الحاج صالح بأنّها ذات خطورة سلبية أكثر منها إيجابية، فبعض الباحثين واللّسانين ممّن تتلمذوا في المدارس اللّسانية الأوربية وأخذوا المعارف من هناك وتشربوا من المنبع مباشرة، عادوا إلى أوطانهم العربية تنافسوا وتفانوا في نشر ما تلقّفوه من مفاهيم وتصورات في أوربا وحاولوا زرعها في جسم اللّغة العربية وتطبيقها على الدّرس اللّساني العربي. لكن المشكلة ليست هنا، بل على العكس التلاقح الفكري والمعرفي أصبح اليوم ضرورة معرفية وإلحاحا بحثيا أكثر من أي وقت سابق، لأنّنا نعيش تحت وطأة العولمة المعرفية. بل المشكلة تكمن في أنّ هؤلاء الباحثين قد نصبوا أنفسهم رسلا لنشر هذه المناهج اللّسانية أو النظريات الغربية أكثر من أصحابها الحقيقيين، وذلك تحت فكرة التسليم المطلق لها على أنّها حقائق علمية وجب اتّباعها وكأنّها فرض عين على كل باحث لغوي أو قارئ يبحث عن الجديد وقد عاب عليهم الباحث اللّساني عبد الرحمن الحاج صالح منهجهم هذا، الذي كان من المفترض أن يضع كل المفاهيم والتصورات التي تأثّروا بها موضع الافتراض الذي يستدعي الاختبار والتجربة (صالح، 2007 صفحة 13)، وفي هذا يقول عبد الرحمن الحاج صالح" **أن ينزل الرأي والتصور والمفهوم منزلة الحقيقة العلمية**..." (صالح، 2007 صفحة 13)، حتى يتخذ بعد ذلك الباحث اللّساني موقف الرفض أو التأييد وبالتالي التبشير بها والدّعوة إليها.

3–1–4– عدم البحث في الأسس العلمية والتاريخية للمفاهيم والتصورات الرائجة:

على الباحث اللّساني قبل أن يتبنى مفاهيم وأطروحات فكرية ويمنحها مفاتيح التسليم العقلي، عليه أن يخضع هذه التصورات والمفاهيم إلى مساءلة بحثية حيث عليه العودة إلى حفريات النشأة والتكوين لهذه المفاهيم كيف نشأت؟ وما دواعي ظهورها؟ باحثا في ذلك عن الإطار الفلسفي التي تتغذى منه النظرية اللّسانية أو المناهج العلمية، متعقّبا الزمن التاريخي الذي أحاط بها حتى تفهم الأبعاد المعرفية من خلال معرفة المناخ التاريخي الذي تمخضت فيه المفاهيم والتصورات، غير متناس التساؤل عن الأسس والركائز العلمية التي عليها قامت وتأسست، لأنّ الباحث مهما بلغ فهمه

للنظرية العلمية يبقى إدراكه قاصرا عن فهم عمقها وقوانينها ما لم يعد إلى أسسها التي تعتبر معالم هامة في فهم الغاية والقصد من كل مفهوم وتصور ونظرية (صالح، 2007 صفحة 13).

3-1-5- التّعامل السلبي مع التّراث العلمي اللّغوي العربي:

يصف عبد الرحمن الحاج صالح تجاهل بعض الباحثين اللّسانين واللّغويين للتراث العلمي اللّغوي العربي بأنّه سلوك سلبي خصوصا حينما نلحظ ونعاين ما أبدعه العرب من مفاهيم وتصورات ما وجدت لها مثيلا في التراث اليوناني ولا في المذاهب الغربية الحديثة، ويعزو الباحث هذا السلوك غير الأخلاقي إلى سببين هما: (صالح، 2007 صفحة 14).

أ- جهل الباحث العربي بجوهر المفاهيم والتصورات العربية.

ب- الاعتقاد الراسخ لأغلب الباحثين بضعف القيمة العلمية للبحث اللّغوي العربي بحيث يرون في كل جديد معرفي أتى به العرب وتفردوا به دون أن يعثروا له على مقابل في التراث الغربي أو الدّرس الغربي الحديث، فإنّه بهذه المقابلة والمقارنة يفقد القيمة العلمية، ويعلل عبد الرحمن الحاج صالح وجود هذا الاعتقاد المنافي لأخلاقيات الباحث العلمي إلى مفهوم العلمية وفق مقولة أوغست كونت في القرن التاسع عشر الذي يزعم تطور الفكر الإنساني في خطّ مستقيم من الفكر الدّيني إلى الفكر الميتافيزيقي إلى الفكر الإيجابي العلمي، وهذه طبعا نظرة خاطئة لأنّ الفكر الإنساني لا يسير دوما وفق خطّ مستقيم بل يسير مندرجا متسلسلا- وهذا ما طرحه أيضا الفيلسوف مالك بن نبي في كتابه مشكلات الحضارة- ومن المفاهيم اللّغوية التي تفرد بها التراث اللّغوي العربي نجد الحركة والسكون، الكلمة، القياس، الباب...

لقد أساء بعض النّقاد في قراءتهم للتراث فحرفوا مفاهيمه ومقاصده عن جهل وتعصب، وهناك من نادى بتجاهل التراث العربي لأنّ لا قيمة له مقابل بريق الحداثة اللّسانية وهذا النقد ليس وليد العصر الحديث،"لكن هذا التراث لم يسلم من أقدم العصور من الانتقاد، فوقف منه أحيانا موقف الاستخفاف، واعتبر أنّه ليس ضروريا لتحصيل ملكة العربية أو بالأحرى أنّ التبحر فيه لا يضمن اكتساب الملكة المذكورة بل يكون عائقا في سبيلها" (المهيري، 1993 صفحة 5).

3 –1–6– التقليـد السلبي:

ويناقش عبد الرحمن الحاج صالح فكرة التقليد من زاوية مغايرة عما اعتدناه، حيث يساوي الباحث في فعل التقليد أيا كانت طبيعة المقلَّد عربيا كان أم غربيا، حيث يعيب على المقلّدين للغرب وللعرب خصوصا الذين تم تقليدهم من عصر الانحطاط والضعف الفكري والمعرفي العربي لأنّ هؤلاء المقلّدين قد حرفوا النصوص عن أصولها الموضوعة، وشوهوا المقاصد وحملوا النصوص مالا تحتمل، وأوغلوا في التأويل حتى عاثوا في النص فسادا، ويذكر الباحث كيف تم تأويل الألفاظ التي جاءت في نصوص النحاة المتأخرين، وإسقاطها على نصوص النحاة الأولين، وعلى نظرياتهم مثلما فعل ابن مالك ومن جاء بعده من على تصور الخليل بن أحمد، وسيبويه، وأبي علي الفارسي، وابن جني وغيرهم (صالح، 2007 الصفحات 14–15).

3–1–7– الابتعاد عن الروح العلمية:

يبتعد الباحث اللّساني عن الروح العلمية في البحث كلما سمح لصوت الانتقاد والتهجم بالارتفاع على منجزات التراث اللّغوي العربي، والحطّ والتحقير من قيمة ما أنجزه النحاة واللّغويون وما وصلوا إليه من تصورات وأفكار ومفاهيم تفوقوا في بعضها عما جاءت به اللّسانيات الغربية مثل الترويج والتكرار لفكرة تأثّر البصريين بالمنطق الأرسطي ويعلّل عبد الرحمن الحاج صالح"**أنّ منطق أرسطو مبني على الاشتمال أي اندراج شيء تحت شيء آخر مثال الاستدلال الذي أوضحه فورفوريوس كل إنسان فان وسقراط إنسان إذن سقراط فان...أما الاستدلال العربي فهو قائم لا على هذا الاندراج بل حمل الشيء على الشّيء أو إجراؤه عليه ومن ثمّ إلحاقه الحكم به لوجود جامع بينهما يستنبطه الباحث بهذا الإجراء وهذا هو عين الاستدلال في الرياضيات وهذا الفارق بين القياسين اليوناني والعربي هو أساسي ولم يدركه إلّا القليلون من الناس**" (صالح، 2007 صفحة 15)، وبالتالي فإنّ أهم عنصر وجب على الباحث الاتّصاف به هو الروح العلمية التي تكسب منهج البحث العلمي مرونة وتدفع بالباحث نحو أهدافه دون عقد معرفية ولا تعصب مذهبي.

4– منهج عبد الرحمن الحاج صالح في قراءة التراث اللّغوي العربي:

4–1– التحري والتأكّد من صحة الخبر أو الرواية:

قد يتساهل الباحث اللّغوي أو اللّساني في بناء نظرية لغوية أو مفهوم ما على أقوال وأفكار دون البحث فيها والتأكّد من صحتها، فيعتمد على كتاب أدب أو كتاب من كتب الطّبقات، وعليه

شدّد عبد الرحمن الحاج صالح على"**ضرورة التأكّد من صحة الخبر أو الرواية قبل أن يبنى عليه نظرية كاملة**" (صالح، 2007 صفحة 16)،ويضرب الباحث لنا مثالا وقضية أثارت الجدل قديما وحديثا وهي علاقة النّحو العربي بمنطق أرسطو حيث بنى بعض المحدثين تصوراتهم واجتهاداتهم على مقولة تزعم بناء النّحو العربي من أوله أو ابتداء من الخليل على المنطق اليوناني "**ويستشهد بقول القفطي أنّ الخليل كان يلتقي مع حنين بن إسحاق**" (صالح، 2007 صفحة 16). ولو تفكّر الباحث قليلا و قلّب في تاريخ نشأة هذين العالمين لوجد أنّ الخليل قد توفي قبل ولادة حنين بعشر سنوات، وبالنّظر إلى الكتاب الذي اعتمد عليه بعض الباحثين في هذا الزعم والذي يعود لكتاب الأغاني الذي اشتهر صاحبه بالمجون والفسق، وبالتالي فإنّ شهادته وأقواله المبثوثة في كتبه مردودة عليه. ومن سمات مؤلّفي طبقات المتأخرين قد خلطوا بين الغثّ والسمين، بين الصحيح والسقيم، وأدخلوا كل ما سمعوه دون تمحيص ولا تحرٍ إلى كتبهم (صالح، 2007 صفحة 16).

وفي هذا يتفق رمضان عبد التواب مع عبد الرحمن الحاج صالح، فيتعجب أيّما عجب حينما يرى مجموعة من الباحثين الأفاضل، وقد اعتمدوا على نص المزهر في مسألة جمع اللّغة العربية ومنع الأخذ من مناطق العرب المجاورة للأعاجم، حيث جاء في نص المزهر أنّ العرب مجاورة لليونان حيث تم الاعتماد وتناقل النّص من باحث إلى آخر، دون التحري من صحة هذا النّص (التواب، 1985 صفحة 6).

4–2– الدعوة إلى شمولية المراجع والمسح الكلّي للموضوع المبحوث:

يصف عبد الرحمن الحاج صالح بعض البحوث بعدم الشمولية فيما يخص المراجع لأنّ الباحث فيها اكتفى بعدد قليل من المراجع عن الموضوع وعليه بنى نظرية كاملة.

وقد لا ينظر الباحث إلى المخطوط إلّا نادرا، فيعتمد الكتب فقط دون الرجوع إليه وقد يجد في المخطوط ما غاب أو تم تحريفه في الكتب، أو يجد تكملة للنّص قد اجتزئت أثناء المسح أمر ضروري يعطي للموضوع صبغة علمية وهذا الفعل في نطاق ما استطاع إليه الباحث سبيلا (صالح، 2007 صفحة 16).

ذم الباحث اللّساني عبد الرحمن الحاج صالح أيضا طريقة التّعامل مع الكتب في نهج التّصفّح السريع الذي لا يفيد الباحث، فقد يبقى واقفا عند العتبة النّصية فقط، وتجعله يذهب في تأويل النّصوص تأويلا ضل مقصده، لأنّه لم يطّلع على جواهر الكتب التي مازال بينه وبينها الشّوط الكثير من القراءات الواعية الفاعلة المنتجة.

4–3– الانتقاء المعرفي وخطورته في تهديد علمية البحث:

كل ما سبق قد يكون هينا في نظر عبد الرحمن الحاج صالح أمام خطورة الانتقاء المعرفي فيذهب الباحث في أخذ ما يتوافق وفكرته ويؤيد طرحه، ويتجاهل كل ما يعارض فكرته أو يكذّبها ويدحضها، وفي قضية الأخذ وفق هوى الباحث المعرفي ضرب لنا الباحث مثلا يبرز خطورة هذا السلوك المنافي لأخلاقيات البحث العلمي وهي قضية"كتاب الإنصاف"للأنباري" (صالح، 2007 صفحة 16) ، هذا الكتاب الذي خاض في مسائل الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية، حيث تم اعتماده من قبل أغلب المحدثين في طرح هذا الخلاف المشهور، في حين تركوا المنبع الأصيل في الأخذ وتجاهلوا ما كتبته هاتان المدرستان، فكان الاعتماد عليهما أولى والرجوع إليهما ضرورة لا رجعة فيها، ولا تغيب عن عقل باحث نزيه يبتغي الحقيقة وينشدها، كما قد عاب عبد الرحمن الحاج صالح على الذين استندوا على"كتاب الإنصاف" في عدم القراءة والبحث في نحاة زمانه وعدم إجراء المقارنة بين الكتب التي ألّفت في الموضوع نفسه مثل: كتاب معاني القرآن للفراء، وكتاب معاني القرآن للأخفش (صالح، 2007 صفحة 17).

وهما عالمان عاشا في العصر نفسه، وهذا ما قام به أحد الأساتذة في دراسته المقارنة، واكتشف أنّ أكثر ما روي في كتاب الإنصاف لم يكن للأنباري، بل لغيره. هذا من جهة ومن جهة أخرى ما كان قد نسبه لهذا أو ذاك من النحاة غير صحيح بالشكل الذي رواه ووصفه، ولم يرجع الباحثون للمخطوطات التي تكلّمت عن ذلك الخلاف إلا بعد طبعها كـــ" أصول النحو" كتاب ابن السراج الذي يحتوي على الكثير من مسائل الخلاف البصري الكوفي، وقد أثبت هذا الكتاب بالدّليل القاطع على أنّه هو ومن عاصره كابن كيسان أول من مزج النحو بالمنطق اليوناني قبل الرماني خلافا لما يزعمه ابن الأنباري. وبالتالي لاغرابة في أن يصف عبد الرحمن الحاج صالح الانتقاء المعرفي بالخطورة (صالح، 2007 صفحة 17)

وينسب صفة الأصالة للباحث في قوله الباحث الأصيل، هو الذي إذا رام الشيء قصد مباشرة من منابعه الأصيلة، واتّصل بكل ماله علاقة بالبحث من عناصر زمانية ومكانية ويتجه نحو أصول الموضوع مباشرة لا أن يبحث هنا وهناك فكلما بعدت المسافة المعرفية عن البحث المنشود كلما تعقّدت وتشابكت السبل إلى الوصول إليها، وقد يظن الباحث في ذلك التعقيد أنّه قد عثر على الشيء الثمين، وما هو في الحقيقة إلّا وهم يحسبه الباحث معرفة، وكتاب سيبويه في هذا خير دليل حيث هرع أغلب الباحثين إلى الشراح والمفسرين لكتاب سيبويه خصوصا النحاة المتأخرون الذين

جرفوا المفاهيم الصحيحة عن مسارها العلمي، وحملوا نصوص سيبويه على تأويلات ما قصدها صاحبها بل شوهت قيمته العلمية، وحملوه وزر التعقيد في النحو العربي فجعلوه حجة ركبها دعاة تجديد النحو العربي وتيسيره. ولكنهم لو ذهبوا مباشرة إلى كتاب سيبويه وحاولوا جادين غير منحازين ولا متعصبين قراءته لكشف لهم عن العجب العجاب، ولعادوا متأسفين عن رجم هذا الكنز الثمين والقيمة العلمية العبقرية (صالح، 2007 صفحة 17).

4–4– الامتناع عن ذكر القول مباشرة من صاحبه دون ذكر مصدر هذا القول:

يمنع عبد الرحمن الحاج صالح ذكر القول الذي يستند عليه الباحث مباشرة من صاحبه دون الرجوع إلى مصدر هذا القول، فلا تحمل الأقوال من ألسن الرواة والنصوص الثانوية دون الوقوف على مصادرها التي ذكرت فيها والتحري في ذلك بصرامة وحزم ودقّة متناهية، ويحذر الباحث من ذكر القول المروي على غير لسان صاحبه إذ وجد في الآثار العلمية لابن الأنباري، اكلام الأخفش في كتاب القوافي، والسيوطي كذلك، (صالح، 2007 صفحة 17) وهذا كلّه يدخل في تضييق دائرة الزيف والتحريف التي تطال الأقوال التي تحمل على ألسن ليست لأصحابها وحتى يفهم القول ومقصده ضمن النص الذي ولد فيه القول، فالنص تتحكّم فيه سياقات مختلفة هي من توجه الباحث نحو قصد القائل.

4–5– الــتجرد من كل فـكرة أو نظــرة مسـبقة:

يحث عبد الرحمن الحاج صالح على ضرورة التجرد من كل فكرة مسبقة أو نظرة عند محاولة فهم مقصود نص من نصوص القدماء، ويخص الباحث بالذكر الذين حال بيننا وبينهم عصر الانحطاط، هذا العصر الذي يعدّ أحد أخطر العوامل التي أوصدت الاجتهاد، وحالت بيننا وبين وجه المعرفة الحقّة والمنابع الأصيلة في التراث اللّغوي العربي التي سادت القرون الأربعة الأولى، وما خلّفه علماء هذه الفترة الذهبية الناصعة التي تؤرخ لأعظم مرحلة من مراحل العبقرية للعقل والفكر العربي، فقد أثّر عصر الانحطاط على مسيرة هذه المفاهيم العلمية ومختلف العلوم، ولم يمنح لها طريقا سلسا للتجسير المعرفي، بل حبسها في قوالب جامدة وأفرغها من محتواها المعرفي وأزال عنها صبغة العلمية. (صالح، 2007 صفحة 17)

4–6– المستشرقون والتّراث العربي:

إنّ علاقة الاستشراق بالتراث العربي علاقة سادها الغموض أكثر من الوضوح، وارتبطت غاياتها بالنزعة الاستعمارية أكثر ممّا ارتبطت بالنزعة العلمية، وفي علاقة المستشرقين بالتراث العربي

تمايزوا وفق أهدافهم المعلنة وغير المعلنة، فمنهم من جعل التراث مطية يتوسل به المستعمر الغازي، ليطلع على اللّغة العربية فيقف على نمط التفكير العربي، فيسهل بذلك السيطرة والتحكّم بالفرد العربي، ومنهم من نظر للتراث إرثا معرفيا إنسانيا حقَّ له البحث والتنقيب فيه وغدا بذلك النّاطق المعرفي باسمه والمخرج لكنوزه الدّفينة من المخطوطات والكتب إلى النور، فظهرت عبقرية القدماء و توارثها الجيل المتعطّش للنهضة المعرفية بالإحياء والبعث، وهناك بعض المستشرقين الذين شوهوا النّصوص التراثية فما نقلوها بأمانة سواء عن قصد أو غير قصد، لكن الباحث العربي سقط فريسة الاتّباع الأعمى فكرر الخطأ وساهم في نشر الزيف من النّصوص، ولا نجد أدلّ على ما قلناه سوى قول طه عبد الرحمن"**ولكن المستشرق وإن زانه علم منبثق من أصول تراثه، وتطلّع إلى أن يستخدم هذا العلم في الكشف عن غير تراثه، فلا يجوز أن يطمئن أصحاب التّراث إلى أحكامه حتى يقوم الدلّيل القاطع على حصول أسباب هذا الاطمئنان، وليس لأنّ المستشرق ما يفتأ يلبس على الغير ويشكّك فيما عنده وفيما ورثه(...)لأنّ المعرفة التي يحميها ليست من صنف المعرفة التي تولّدت بها مضامين التّراث الإسلامي العربي وتكونت بها مقاصده، بهذه المعرفة تصل العقل بالعين، وتصل العلم بالعمل، وتلك معرفة تقطع العقل عن العين وفصل مابين العلم والعمل فلا تناسب هذا التّراث ولا تفيد في تقويم أطواره ولا تصحيح مساره**" (الرحمن، 1993 صفحة 10).

ويذكر عبد الرحمن الحاج صالح سببا آخر ساهم في هذه الأزمة المنهجية المعرفية، وهم الباحثون الذين تأثّروا ببعض المستشرقين الذين تنعدم في أخلاقهم البحثية صفتا الإنصاف والحياد العلمي والانحياز لأفكارهم البحثية المسبقة، فيقرؤون النص وفق فكرة مسبقة ويحاورونه وفق ذلك، فيسير على خطاهم بعض الباحثين على غير هدى فيسقطون في فخ التقليد الأعمى، وتصبح رؤيتهم نحو الآخر وفكره رؤية مبرمجة مسبقا، مثل الذين لا يرون في سيبويه إلّا الرجل الفارسي الذي تأثّر بالمنطق اليوناني (صالح، 2007 صفحة 17).

ويدحض الباحث أيضا قول باحث آخر يزعم بأنّ كل المفاهيم في النّحو العربي أخذت من النّحو السرياني لوجود نفس المصطلحات، و من خلال إجراء مقارنة بسيطة لتاريخ ميلاد العالمين الخليل بن أحمد وحنين بن إسحاق يجد أن الخليل قد توفي بعشر سنوات قبل ميلاد حنين ابن إسحاق، وينسى الباحث كما يقول عبد الرحمن الحاج صالح"أنّ **المصطلحات العربية لم تظهر**

عند السريان إلّا بعد أن ظهرت عند العرب أي في القرن الثالث الهجري وبصفة خاصة عند حنين بن إسحاق الذي له كتاب في النّحو السرياني" (صالح، 2007 صفحة 17).

4–7–كيف السبيل إلى فهم مقاصد النّحاة الأولين وأغراضهم:

إنّ الوصول إلى مقاصد النّحاة وأغراضهم مطلب أغلب الباحثين في الدّرس اللّساني العربي إن لم نقل كلّهم، لكن ذلك للأسف ليس متاحا للجميع، فالباحثون يتمايزون في الاتّصاف بأخلاقيات البحث العلمي، وفي قدراتهم المعرفية والفكرية، وفي قدراتهم على توظيف مناهج البحث اللّغوي وفي اختيار أنسبها الذي يتوافق وطبيعة الموضوع،"**وهذا الإلمام إنّما يتحقق بدراسة بعض الكتب التي تعالج الموضوع نفسه أو موضوعا يقاربه أو يتّصل به ليستطيع المحقّق أن يعيش في الأجواء المطابقة أو المقاربة أو المماثلة لكي يكون على بصيرة نافذة**" (هارون، 1988 صفحة 21)، وعليه يحدّ د عبد الرحمن الحاج صالح معالم الطريق للوصول لفهم مقاصد النّحاة وأغراضهم من أن يسلك الباحث النّهج العلمي الصحيح في تحليل النّصوص ويحصرها عبد الرحمن الحاج صالح حسب منهجه في شيئين اثنين: (صالح، 2007 صفحة 18)

- **المسح الكامل الشّامل للنّص المراد تحليله.**
- **الاكتفاء بهذا النّص في التّحليل هو وحده إذا كان طوله يسمح بذلك.**

وأسس عبد الرحمن الحاج صالح هذا المنهج في التّحليل على مبدأ: هو أنّه لا يفسر كتاب سيبويه من بين الكتب إلا كتاب سيبويه، ويضيف الباحث أنّ الوصول إلى استخلاص معاني النّصوص واستخلاص المقاصد الحقيقية التي قصدها سيبويه بالفعل يتطلّب طريقة خاصة وقد أطلق عليها اسم:"**المقابلة الدّلالية**" (صالح، 2007 صفحة 18). فإذا طال النّص وتكررت فيه الأقوال بألفاظ مختلفة، فيمكن حمل عباراته بعضها على البعض بشرط أن تكون القرائن المقالية فيها والقرائن الحالية هي هي إذا ثبت ذلك بدليل قاطع.

وتعتبر"**المقايسة**" (صالح، 2007 صفحة 18) أحد أهم الأدوات الإجرائية التي يعتمدها عبد الرحمن الحاج صالح في منهجه التّحليلي للنّصوص التراثية وهي تتناول كل الألفاظ التي حملت بعضها على بعض واستدل القائس على تساوي هذه العبارة تلك كانت اللّفظة أو الألفاظ غير الملبسة(خصوصا إذا تكررت وتعدّدت) ومنه كانت دليلا يظهر بجلاء قصد المؤلّف من اللّفظة الغامضة من خلال مساواتها مع غيرها بناء على إجراء المقايسة.

وهذه الدّراسة الدقيقة كما يصفها صاحبها لا يمكن أن تؤتي أكلها وثمارها إلّا بالمسح الكامل الشّامل للنّص والقيام باستقراء لكل عباراته بتأنّ وصبر، ثمّ استخراج اللّفظة المراد تحليليها(الوقوف على جميع السياقات) وإيضاح معناها الذي قصدّه المؤلّف(أو معانيها)، ويشترط عبد الرحمن الحاج صالح على الباحث أن لا يلجأ إلى غير النّص إلّا بعد استفراغ كل المعاني والمقاصد للاستئناس والتّأكيد لما توصل إليه القائس المحلّل لأنّ الطّريقة طريقة منطقية لا تسامح فيها ولا تساهل.

ونذكر مثالا تطبيقيا ذكره الباحث وأجرى عليه هذا المنهج التّحليلي **وهو لفظة الفصاحة** (صالح، 2007 صفحة 18) وما يشتق منها، وما هو الغرض من الفصاحة من عصر سيبويه ومن عاصره إلى عصر الجاحظ ولقد حولنا هذا التّحليل النّثري إلى خطاطة حتى نُجمل كل الألفاظ المتعلّقة بمفهوم الفصاحة بشكل واضح وبسيط:

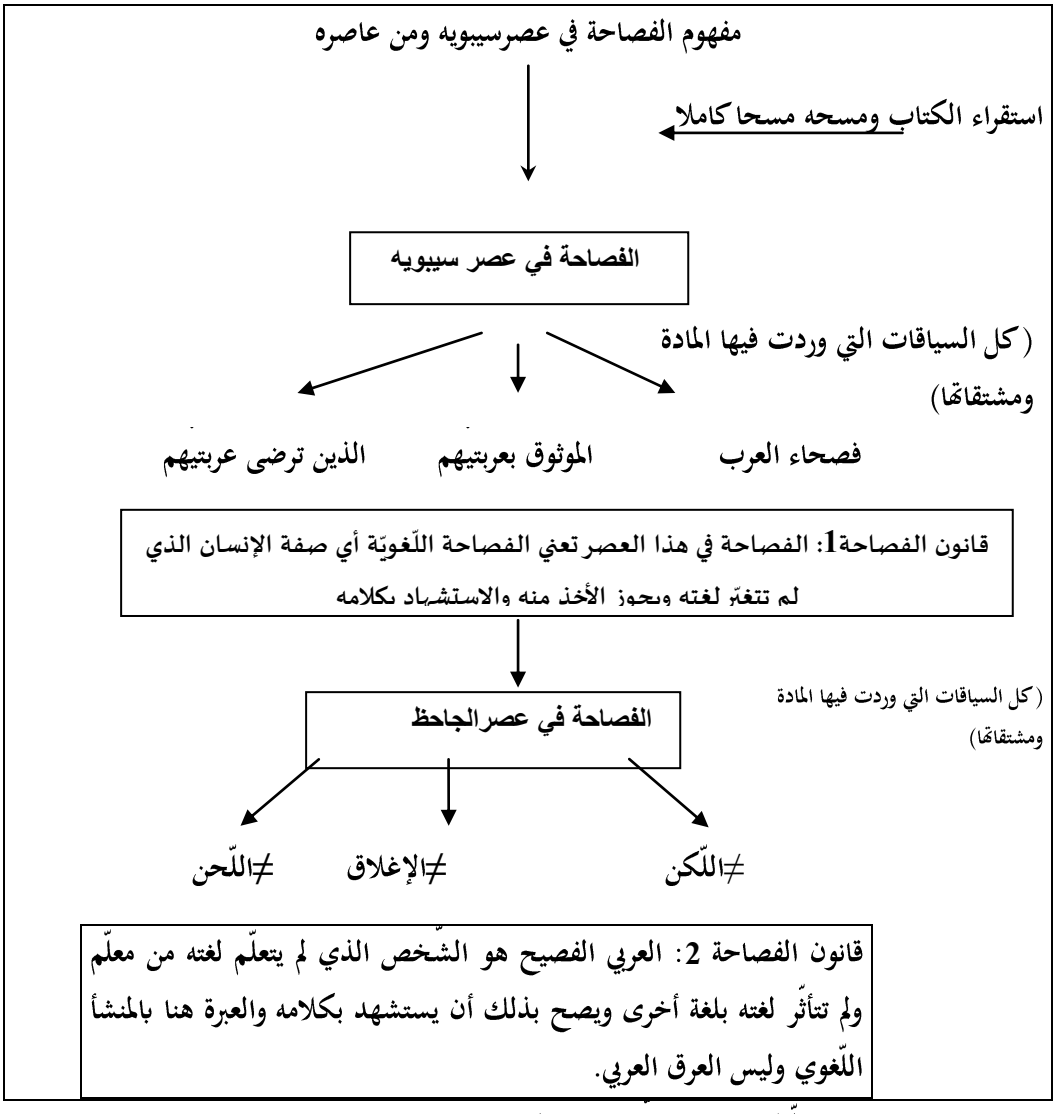

مخطّط رقم(01) يمثل مفهوم الفصاحة في عصرسيبويه ومن عاصره

وبهذا المنهج الذي اتّبعه الباحث عبد الرحمن الحاج صالح في تحليل النّصوص حيث وجب البحث عن الكلمة داخل النّص في مختلف سياقاتها، فالكلمة تحمل قيمتين، قيمة تعطي لها الدّلالة الوضعية وقيمة أخرى تعطى لها دلالة خاصة. ولهذا قد يجانب الباحث الصواب لو اجتثّ الكلمة من النّص وأبعدت عن سياقها فإنّها بلا شك تموت دلاليا خارجه وتصبح بلا معنى، ومنه لا تستطيع أن تكتسب هذه الدّلالة إلا داخل النّص.

وبهذه الطريقة التحليلية يقول عبد الرحمن الحاج صالح إنه توصل إلى فهم مقاصد النحاة الأوائل وأغراضهم، وبالتالي قد أدرك النّظرية العلمية التي بني عليها النحو العربي الأصيل،وفي منهج إعادة القراءة لدى عبد الرحمن الحاج صالح يقول الباحث اللساني بشير إبرير"عندما نتأمل أقوال عبد الرحمن الحاج صالح نجدها تمثل قراءة نوعية تحفر في أعماق التراث اللساني العربي، وتعمل على استخراج مافيه من لطائف ودرر" (إبرير، 2021 صفحة 110).

5–الخاتمة:

لقد ذكرنا في بحثنا هذا ما أوجبه الباحث اللّساني عبد الرحمن الحاج صالح من توفّر صفات أخلاقية في شخصية الباحث النّزيه، التي تشكّل الأصول المنهجية والمبادئ التي من شأنها أن تفتح آفاقا للبحث العلمي خصوصا في دراسة التراث اللّغوي العربي. ومنها:

– يعدّ عبد الرحمن الحاج صالح من أوائل النقاد اللّسانيين المحدثين الذين مارسوا النّقد ممارسة علمية وما ذكر سابقا في الأصول والمبادئ ما هي إلّا أسس يقوم عليها النّقد اللّساني الذي يعدّ أحد الوجوه التي توضح إعادة قراءة التراث العربي عند الباحث.

– من خصائص المنهج الذي اتّبعه عبد الرحمن الحاج صالح في إعادة قراءة التراث اللّغوي العربي، التّحلي بالصفات الأخلاقية للباحث اللّساني، وتوظيف المناهج اللّسانية في خدمة التراث العربي توظيفا يحافظ على أصالته وفي الوقت نفسه يستفيد من المعرفة اللّسانية الغربية.

– إنّ عدم التزام الباحث بالأصول المنهجية والمعرفية وعدم استغلالها الاستغلال العلمي الصحيح من شأنه إن يعرقل مسيرة البحث، وما نجده اليوم من مشكلات في البحث اللساني العربي يعود بعضها لغياب الالتزام الأخلاقي والعلمي في شخصية الباحث.

– يقوم البحث اللساني على منهجين أساسيين لا مفاضلة بينهما، وعليه وجبت على شخصية الباحث اللساني التحلي بهما معا وهما:

- المنهج الأخلاقي : هو منهج قائم على الأصول المعرفية والمبادئ المنهجية والمعايير الأخلاقية، ولا يستطيع الباحث أن يفكر أو يبحث دون أن يتشربه بل هو لصيق بالذات الباحثة وسمة تميزها عن غيرها.
- المنهج المعتمد في البحث والدراسة: وهو أحد المناهج اللسانية التي يعتمدها الباحث في دراساته وأبحاثه، ومهما تمرس الباحث اللساني و حصل على

التمكين في توظيف هذه المناهج اللسانية، فإن هذا لا يدفعه في التخلي عن المنهج الأخلاقي، فالبحوث العلمية والدراسات اللسانية والقراءات النقدية تقوم على قيمتين، القيمة الأخلاقية والقيمة المعرفية المضافة.

في نهاية هذه الدراسة التي حاولنا فيها الوقوف بالشرح والتحليل للأصول والمبادئ المنهجية المعرفية في إعادة قراءة التراث العربي عند عبد الرحمن الحاج صالح ، يمكننا وصفها بأنها قراءة منصفة وواعية ومنتجة قد أثرت البحث اللساني العربي.

قائمة المراجع:

1 – بشير، إبرير،(2021)، اللسانيات العربية وأبعادها المعرفية في كتابات "عبد الرحمن الحاج صالح" اللسانية، ا منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الأبيار، الجزائر.

2– التواتي، بن التواتي. (2015). *المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث*. دار الوعي الجزائر.

3– حافظ ،إسماعيلي علوي. (2009). *اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة* (الإصدار ط 1). الكتاب الجديد.

4– حنفي، عيسى. (1991). *التراث والتجديدموقفنا من التراث* (الإصدار ط4). بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

5– عبد الرحمن، الحاج صالح. (2007). بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (المجلد1). موفم للنشر.

6– رمضان، عبد التواب. (1985). مناهج تحقيق التراث بين القدماء والمحدثين (ط1). مصر: مطبعة المدني

7– عبد السلام، هارون.(1988). قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث (ط1). القاهرة: مكتبة السنة.

8– طه، عبد الرحمن. (1993). تجديد المنهج في تقويم التراث (ط2). المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

9– عبد القادر، المهيري.(1993). نظرات في التراث اللغوي العربي (ط1). بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.

10– مصطفى، غلفان، اللسانيات العربية: رؤية في منهجية المصادر والأسس النظرية، أعمال الندوة الدولية حول اللغة العربية والنظريات اللسانية الحصيلة والأفاق،جامعة الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس، المغرب، 21،2007/11/22.